ويثور شعب محكوم على شعب حاكم. فإذا حالفه النصر تخدّر بخمرته وقال معتزّاً بقدرته: «لقد استرددت حريتي. وأنا اليوم حرّ أحكم ذاتي بذاتي». فلا يلبث أن يفيق من سكرته، وإذا بالسلاسل التي توهّم أنّه حطّمها ما تزال تكبّل يديه ورجليه. فما تبدل منها غير معادنها، وغير أشكالها وألوانها. فهو مقود لا قائد، وزمامه في غير يده. وهو يحارب اليوم، كما كان يحارب في الأمس، على ألف جبهة وجبهة. لقد تغيّر القواد. أمّا الحرب فهي هي: حرب الإنسان مع الإنسان في سبيل السلطة والمتعة والعزّة والكرامة. ثمّ حربه مع الطبيعة في سبيل القوت والكساء والمأوى والإبقاء على رمق الحياة أطول مدى مستطاع، وفي سبيل السيطرة عليها سيطرة مطلقة كاملة. ونحن لا تتمّ لنا السيطرة على شيء من الأشياء إلاّ بمعرفة ذلك الشيء معرفة كاملة. فالإنسان سيّد ما يعرف وعبد ما يجهل. والذي نجهله من أنفسنا ومن الكون أكثر ممّا نعرفه بما لا يقاس. وإذن كان لا بدّ لنا ـ للانعتاق من سلطة الطبيعة ـ أن نعرف كلّ ما فيها من منظور وغير منظور. فأحرِ بنا أن نبدأ بهذا الكائن العجيب الذي يودّ أن يعرف، ويودّ أن يتحرّر. حتى إذا عرفناه معرفة كاملة سيطرنا عليه. وكان لنا في معرفته وفي السيطرة عليه المفتاح لمعرفة الطبيعة والسيطرة عليها. وهو